خليل مطران

شغل هذا الشاعر الناس أكثر من نصف قرن بشعره الطريف ، وقد كان يعد فى شبابه ثائرًا على اللغة والأدب العربى ، بيد أنه اليوم يتمتع بمكانة محسودة بين شعراء هذه اللغة . هاجم هذا الرجل جمود اللغة العربية بشعره الرائع المعانى ، الدقيق اللفظ ، الباهر الصور ، الطريف الموضوعات ، وجذب حوله أنصارًا وشيعة قوية ، وانتهى الأمر به إلى أن صار زعيم المدرسة الحديثة فى الشعر العربى لا ينازعه فيها منازع .

أثر شعر مطران فى نفوس شعراء هذا الجيل عظيم لا يستطيع أن يجحده جاحد ، فهو أول من طرق موضوعات الوجدان والعاطفة الخالصة فى شعر هذه اللغة ، فقد كان يكتب خواطره إلى البحر فى قصيدته «المساء» حينما كان سواه من شاهير الشعراء غارقين إلى الأذقان فى نظم المديح المصطنع المقيت !

والمطلعون على الشعر الأوربى يرون أن مطران واقف على أحدث

تيارات الشعر العصرى . فهو لا ينظر إلى جمال البيت المفرد وإنما ينظر إلى جملة القصيدة ، ويعنى بها كوحدة قائمة بذاتها لها كيانها ولها تركيبها وترتيبها وتناسق معانيها . فأنت حينما تقرأ قصيدة لهذا الشاعر تحس بانسجام الفكر ، وتسلسل الخواطر ، تسلسلاً أكاد أقول منطقيًّا ، بحيث لا تتردد لحظة فى تصديق هذا الشعر تصديقًا تامًّا ، ولا تتوانى فى التسليم بما يقول الشاعر . فليس شعر مطران وهمًا من أوهام المتقدمين والباكين على الأطلال وإنما هو شعر الحياة الصادق ، الذى يعالج العيوب والنقائص البشرية فى سهولة ووضوح .

وفضل مطران على الشعر العربى العصرى عظيم ، فهو الذى مهّد لمدرسة الجديد ، وبنى لها الأساس المتين .

ولقد كان يعتقد اعتقادًا راسخًا حينما أخرج الجزء الأول من (ديوان الخليل) أن شعره الجديد على اللغة آنئذٍ سيصبح شعر المستقبل ، ولقد قال فى ذلك المعنى «على أننى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة هو شعر المستقبل ، لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعًا» ولقد صدق مطران فيما قال ، فلقد شاعت هذه الطريقة وراجت منظوماتها ، وقام رهط كبير من الشعراء يتأثرونه ويحتذون نهجه ، حتى أصبح القوم اليوم لا يطربون لغير شعر هذه

الطريقة التى تحدث عنها مطران فى بيانه الموجز الذى صدّر به ديوانه الأول فى فاتحة هذا القرن الميلادى .

كان للقصة فى الشعر العربى القديم مكانة لا بأس بها ، وكان الشعراء يدوّنون فى قصائدهم مفاخرهم ويسجلون انتصاراتهم ، وبلاءهم فى الغزوات ، بيد أن قصصهم لم يكن قصصًا منتظمًا متسلسل الرواية ، مطرد الحكاية ، وإنما كانت ترين عليه آثار البداوة ، وتغلب على نسجه سذاجة الفطرة الأولى ، واضطراب الطفولة الإنسانية ، فلم تكن هنالك قواعد مرعية ولا نظم مضبوطة ، وإنما هناك عواطف مرسلة على سجيتها إرسالا حرًّا .

خمل شأن القصة فى الشعر العربى بعد ذلك طويلاً ، ولم ينشط الشعراء نشاطاً محمود الأثر فى سبيل النهوض بها حتى جاءت النهضة الحديثة . ولعله من الخير والإنصاف للحقيقة التاريخية أن نقول فى هذا الصدد إن أول مَن مهد للقصة الشعرية الحديثة فى هذه اللغة إنما هو الشاعر خليل مطران . فلقد كتب كثيرًا من روائعه القصصية الشعرية قبل هذا القرن الميلادى العشرين ، وكان مبدعًا غاية الإبداع فى أداء تلك القصص أداءً صادقًا قويًّا سيترك صداه للأجيال القادمة من قُرّاء العربية . وأذكر وأنا أكتب هذه الكلمة قصصه «العصفور» و«فنجان قهوة» و«إن من البيان لسحرًا»

و «الجنين الشهيد» و «فتاة الجبل الأسود» و «نيرون» من (ديوان الخليل) الجزء الأول ولا أحب أن أقتبس منها شيئًا خوفًا من إفساد جمالها ، فما أحسب أن المرء يفهم جزءًا ينتزع من جسم قصة حية ، ولذلك أنصح لكل من يحب الوقوف على أسرار الجمال القصصى فى شعر مطران أن يرجع إلى ديوانه «الخليل» حيث يصيب متعة روحية وذهنية عظيمة بتشرب معانى وصور مطران القصصية كاملة غير منتزعة من أصلها .

فإذا انتوينا أن نؤرخ النهضة القصصية فى الشعر العربى الحديث وجب علينا أن نضع مطران فى طليعة الذين خدموا هذه النهضة ، وأن نقول فى غير لبس أو مواربة إنه الرائد الأول فى هذا المضمار .

ومطران فى تناوله القصة الشعرية لا يقصد أن يعرض علينا حكاية مجردة ، ولكنه يريد أن يستخلص لقومه وجوه العبرة من القصة التى هو بسبيل عرضها ، وهو دائمًا يمزج الخيال بالحقيقة الواقعية فى قصصه ، فلا تجئ قصصه مستحيلة الوقوع كتلك القصص الوهمية التى عُرفت عن الأقدمين ، والتى كان أبطالها من صنع الوهم . ولكنه يخلق لك من الحوادث والمشاهد المألوفة قصصًا تسمو فيها أرواح أبطالها سموًا لا يكاد يتحقق فى هذه الدنيا الواقعة إلاّ فى النادر البعيد الوقوع . يريد بذلك أن ينهض بالنفوس الغريقة

فى أوهام الحياة الشرقية المريضة ، ويأخذ بيدها إلى سبيل النور والسمو والعزة القومية .

وقصصه تستأهل دراسة مستفيضة منفصلة عن شعره الباقى ، ذلك أن القَصص هو العنصر الفذ الذى قامت عليه شاعرية مطران ، شأنه فى ذلك شأن كل نوابغ شعراء أوربا ، وأحسب أن القصة عند الإفرنج نشأت مع الشعر ونمت تحت أنغامه وحبت بين أوزانه ثم ترعرعت واشتد عودها ، حتى لتفتش عن الشعر الأوربى الذى خلا من القصة فلا تكاد تعثر عليه ، والحق الذى لا سبيل إلى إنكاره أن القصصىّ فنان واسع الخيال ، بعيد مدى التصور ؛ فكل شاعر قصّاص واسع الخيال بعيد مدى التصور ما فى ذلك شك ، والشعر القصصىّ عظيمة فوائده ، فهو إلى جانب أنه قصة تشرح بعض العواطف والمعاملات وتقف المرء على شىء من أزمات القلب والعقل ، قريب إلى عقول الجماهير ، حبيب إلى قلوبهم . ولا يستطيع المرء أن يغفل مزايا القصة المنثورة وفضلها على الروح الإنسانية . فإذا سكبت هذه القصة فى أوزان موسيقية وخيالات شعرية ، فهى حرية بأن تنساب إلى القلوب دون وعى أو شعور .

ولقد توافر مطران على هذا الباب السحرى ، وأكثر من نظم القصةُ الشعرية السامية المقصد ، سواء فى ذلك الرمزية المثالية

والعاطفية الواقعية ، وقصة «فتاة الجبل الأسود» قصة ابتدع الشاعر موضوعها ، وخلقها خلقًا بخياله المتوفر المتحفز واختار لها مناسبة حسنة ، مناسبة نهضة شعب جريح العزة يريد الثأر لكرامته المهينة وعزّته الجريحة .

ويلعب الخيال المتوثب دوره الكبير فى جعل فتاة من فتيات هذا الجبل تستهدف لشَعوب بين أسياف الترك وسهامهم التى لا تخطئ الهدف . ولا يزال بك حتى يبهرك بقوة خياله العبقرى ، ويسحرك ببراعة تصويره . وهوكذلك فى قصته «إن من البيان لسحرًا» ، يبدع ابداعًا عظيمًا فى التصوير المثالى المتخيل ، الجامع بين الخيال السامى والحقيقة الشريفة الرفيعة . وكذلك شأنه فى قصة «نيرون» التى تعد من عيون الشعر القصصى .

وأحسب أن منبع القصة عند مطران هو الحب ، والحب الشريف العذرى الذى عرفه فى مطلع الشباب ، وهل الحب إلا قصة كبيرة ، فيها كل ما فى الحياة من عواطف وأفكار وآمال ؟ وأنت ترى الشاعر فى «حكاية عاشقين» التى نظمها من سنة ١٨٩٧ إلى غاية سنة ١٩٠٣ ميلادية يسرد على الناس ذكريات غرامه فى مقطوعات متتابعة ، تأخذ النهج القصصى ، وإنى أومن أن هذه القصة التى يقول الشاعر «إنه تتبع وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير

العاشق ولسان فؤاده» هى قصة الشاعر نفسه ، ما فى ذلك ريب ، ولست أدرى لماذا حاول التخلص منها ، وهى الوحى الصادق الذى ألهب شاعريته إلهابًا عظيمًا ، وأحسب أن مطران الشاعر مدين لذلك الوحى ، وسيبقى مدينًا له ما عاش .

ومطران يتعب فى شعره برغم ما يلاحظه القارئ من إنتاجه الخصب . يتعب لأنه يعتقد أن القصيدة ليست من العبث الذى يلهو به المرء ، ولا يعتقد كذلك أن الشعر من أمور التسلية التى يحتشد لها المرء فى وقت الفراغ ، وإنما هو يرى أن الشعر حقيقة سامية ، يجب أن يكد الذهن فى سبيل إبرازها على أتم ما تكون إشراقًا وثراء وجمالا ، والجمال الشعرى عند مطران لا يعنى جمال الثوب اللفظى فحسب ، وإنما هو جمال المعنى الذى ينطوى عليه هذا الثوب ولقد يحسب الأغرار ممن يخدعهم لمعان الملابس الزاهية أن الجمال كل الجمال فى هذه الثياب الظاهرة وحدها ، ولكن الحقيقة المرّة تنكشف لهم عن تورطهم الشنيع فى الخطأ عندما تتمزق هذه الثياب الظاهرة عن جسد قذر هزيل معروق ! فمطران يجعل همه إظهار المعنى على أتم ما تسع القافية العربية ، ولا يهمه بعد ذلك أجاء اللفظ بحيث يسمو إلى براعة المعنى أم قصر عن الارتفاع إليه .

ولقد خرج شعر مطران على الناس فى أخريات القرن المنصرم

حينما كان غيره من الشعراء المعروفين ينحون النحو القديم من حيث الاحتشاد للفظ والاهتمام بالثوب اللفظى مهما كلفهم ذلك من إفساد المعنى . وأحدث مطران فى العربية شعرًا عربيًا عذبًا لا يخرج على قواعد اللغة ولا على النظم العربى المألوف إلا بمقدار ما أثرت فيه مطالعته فى الشعر الإفرنجى . ولقد تحققت نبوءة مطران بعد مدة قليلة ، فرأى بعينى رأسه ثمر جده وتعبه ناضجًا جنيًا : فهذه مدرسة الشعر الحديث التى أسسها هذا الرجل قد أنجبت بعد قليل من ظهور الجزء الأول من (ديوانه الخليل) أحمد زكى أبا شادى ، وعبد الرحمن شكرى ، وخليل شيبوب ، وسواهم ممن يقودون الحركة الشعرية فى هذه الأيام .[1] ويكفى مطران فخرًا أنه قد أنجب هؤلاء التلاميذ النوابغ . فكل واحد منهم يعد محورًا لحركة أدبية تجديدية أخرى . وما أظن مطران إلا فخورًا بهؤلاء الرسل الأبرار الذين يقومون بالدعوة إلى الشعر الحى الجديد فى صدق واستبسال .

ويعجب المرء حين يرى اهتمام مطران بالنظم فى الأمور العادية ، ولكن هذا العجب لا يعتم حتى يزول ويتلاشى سريعًا حينما يعلم أن النفس الكبيرة واسعة النظرة ، شاملة العطف على المظاهر الكونية ، وهو فى قصيدة «حلوى العيد» يصور صورة باسمة من صور الحياة

(١) يلاحظ أن الطبعة الأولى ظهرت عام ١٩٣٤ .

المألوفة ويرينا كيف تصنع الحسان حلوى العيد .

ويُجدنها فلو السفاه تعففت عن أكلها لضمنتها لخلود

فهذه الصورة الساذجة ترينا كيف يهتم الشاعر بالنظم فى الموضوعات العادية ، وأظنه ماكان ليهتم بالكتابة فى مثل هذا الموضوع لو لم يكن عنصر المرأة مجسمًا ظاهرًا فيه ، فهنا الغيد تصنع الحلوى وكفى أن يكنّ الصانعات لما حتى ينشط الخيال الشعرى المتوثب لتخليد ما صنعن .

والمرأة هى التى تحرك مطران وتحفزه إلى نظم الشعر ، فهى التى جعلته يبكى ويئن فى شعره الأول «حكاية عاشقين» أنين محب صادق الإحساس ، برىء القلب من الأدران ، وهى التى جعلته يبكى عليها بعد ذلك فى قصته الرائعة حقًّا «الجنين الشهيد» حيث يحركه الإشفاق عليها إلى قوله :

وكم ضاجعّ الجوع الأثيم بهاءها وقبّلها حتى أجف دماءها

وكم ساعف الحرُّ المذيب شقاءها وكم نازع البرد الشديد نماءها

نوائب تأتى كالليالى وتستعلى

وقوله :

على أنه ملهى رجال أسافل ومبغى نساء فاجرات عواطل
جديب خصيب بالبطون الحوامل وما تقذف الأمواج من كل ساحل
من الرمل ما يقذفن فيه من النسل !

يُعدَّ بنيه للمهانة والخنا ويلقى بهم فى البحر تحت يد القنا
فيتخذون التيه فى الأرض موطناً عراة حفاة خاثرين من العنا
إذا نزلوا خصباً فبشره بالمحل

فتحترف الأزواج بغى نسائها وتحترف الزوجات خلع حيائها
وولْد خلت آباؤها عن إبائها يتاجر فى أعراضها وبهائها
وتنمو على خلق المفاسد والختل

وهكذا يضرب الشاعر الاجتماعى على هذا الوتر الحساس القريب من القلوب الإنسانية ، ويظهر للملأ أن الحضارة الراهنة إن هى إلا هجية مستترة ، وخان للخنا مبرقع ، ولعلك لحظت كيف أن المرأة كانت وحيه فى هذه القصيدة القصصية ، فجعلت منه المصلح الاجتماعى الذى يجأر بشكواه فى ثورة عادلة حكيمة .

ويدهشك ، بل يحيرك أن ترى روح الفكاهة غالبة على مطران وهو العاطفى المزاج ، المرهف الحساسية ، الذى يعالج أمورًا اجتماعية

جمة . ولكن يبدو لى أن روح التبرم والسخط هى التى جعلت منه الشاعر الفكه فى بعض المواقف ، وكثيرًا ما يضحك المرء فى أشد الحالات عبوسًا وألمًا ، ويجئ ضحكه سليمًا بريئًا من كل آثار الحزن والألم . وهكذا تراه فى قصيدته « يوسف أفندى » و « قضية بين القلب والعين » وسواهما مرحًا فكهًا .

* * *

وللناحية الوجدانية أثر كبير فى شعر مطران ، ومنشأ هذه العاطفة فيما أرى حنينه الكبير إلى وطنه ومسقط رأسه ، وهو فى « قلعة بعلبك » يسمو سموًا عظيمًا فى التعبير عن حبه العظيم لهذه الديار ولأهلها الأعزاء ، ويشعرك بدموعه ويسمعك أنينه فى كل لفظة من ألفاظه الصادقة القوية ، وإنه ليذكرها ويذكر معها طفولته البريئة بين عرصاتها فيقول :

إيه آثار بعلبك سلام	بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصات	مقويات أواهل بالفخار
ذكرينى طفولتى وأعيدى	رسم عهد عن أعينى ستوارى
مستطاب الحالين صفوًا وشجوًا	مستحب فى النفع والإضرار
يوم أمشى على الطلول السواجى	لا افترار فيهن إلاّ افترارى

نزقا بينهن غرًّا لعوبًا لاهيًا عن تبصر واعتبار
مستقلا عظيمها ، مستخفًّا ما بها من مهابة ووقار
يوم أخلو بهند نلهو ونزهو والهوى بيننا أليف مجارى
نتبارى عدوًّا كأنا فراشا روضة ما لنا من استقرار

كنت أحب أن أنقل إليك كل هذه الصورة الوصفية البارعة ولكنى اقتصرت على هذه الأبيات ، وهى تصور لك شخصية الشاعر المحب لوطنه ولذكريات صباه ، وهو ينطلق فى التحدث عن الهوى البريء العفيف الجهول الذى قام بينه وبين «هند» حيث كانا يتباريان عدوًا كأنهما فراشا روضة لا يستقران على حال ! والقصيدة كلها من الشعر الوجدانى السامى .

وكذلك يجب أن نقف وقفة أخرى عند قصيدته «المساء» التى نوهنا بها فى صدر هذا الكلام ، وهى من عيون الشعر الوجدانى الحديث . ولقد أثرت هذه القصيدة فى كثيرين من الشعراء المعروفين فنظموا على غرارها قصائد كثيرة . ولقد قال الشاعر هذه القصيدة ، وهو مريض فى مكس الإسكندرية فجاءت تحفة خالدة ، ومنها يقول :

قلب أذابته الصبابة والجوى وغلالة رثّت من الأدواء

والروح بينهما نسيم تنهد ... فى حالىّ التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره ... كدَرى ويضعفه نضوب دمائى

* * *

هذا الذى أبقيته يامنيتى ... من أضلعى وحشاشتى وذكائى
عمرين فيك أضعت لو أنصفتنى ... لم يجدرا بتأسفى وبكائى
عمر الفتى الفانى . وعمر مخلّد ... ببيانه لولاك فى الأحياء

وهكذا يمضى فى حديثه عن نفسه ، وعن غرامه وعن حياته فى الغربة بين المرض والألم والذكرى الممضة .

متفرد بصبابتى ، متفرد ... بكآبتى ، منفرد بعنائى
شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطرى ... فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصم وليت لى ... قلبًا كهذى الصخرة الصماء

ويخلص من حديثه عن نفسه إلى حديثه عن الغروب فيبدع حيث يقول :

ياللغروب وما به من عبرة ... للمستهام وعبرة للرائى
أوليس نزعاً للنهار وصرعة ... للشمس بين جنازة الأضواء
أوليس طمسًا لليقين ومبعثًا ... للشك بين غلائل الظلماء

أوليس محوًا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء
حتى يكون النور تجديدًا لها ويكون شبه البعث عود ذكاء

وهكذا يفتن الشاعر العبقرى فى وصف الغروب افتنانًا رائعًا حقًّا يسلب القلب والمشاعر جميعًا .

وهكذا مطران فى قصائده الوجدانية الأخرى شاعر كبير يبلغ القمة السامية ، ويشرف على الكون جميعه ، ويحرك العواطف كلها ، ويخاطب القلوب على اختلاف أميالها وأحلامها ، ولا يؤخذ عليه فى هذا الضرب من الشعر غير العناية الكبيرة بالمعانى الرصينة القوية والاهتمام التام بحشد الصور الكثيرة المزدحمة ولكن وحدة القصيدة عند مطران من أسباب مجده الشعرى ، ولعله الشاعر الأول الذى عنى بها بين شعرائنا المحدثين .

ومطران يحب حبًّا شاملا لا يحد ولا يحصر ، يحب الناس جميعًا ومن هنا كان له أصدقاء كثيرون أخلص لهم الود وأنزلوه من نفوسهم منزلة كريمة . ويظهر لك هذا الحب الشامل المتين فى فرحه وابتهاجه بفرح هؤلاء الأصدقاء وابتهاجهم ، وفى حزنه وبكائه لدى مصائبهم وآلامهم .

ولعل أحسن قصائد الرثاء فى شعر مطران قصيدته فى صديقه

الزعيم «مصطفى كامل» التى أنشدها على ضريحه فى حفلة الأربعين . وهى قصيدة سامية الخيال . قد ظهرت فيها العاطفة الصادقة ظهوراً بيناً . ولا بدع . فقد كان خليل مطران أحد المجاهدين الذين انضموا تحت لواء الزعيم مصطفى . وناصروه فى دعوته . وأيدوه فى فكرته . وتأثروا بآرائه . حتى ليرى القارئ هذا التأثير واضحاً تمام الوضوح فى (ديوان الخليل) نفسه وفى هذه القصيدة يقول :

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبرًا
وكأننى بك موشك أن تهتفا

* * *

وبعد ، فهذا مطران الشاعر كما يبدو فى ديوانه الأول (الخليل) الذى طبعه فى أوائل هذا القرن الميلادى ، ولا يزال فى طليعة مفاخر الشعر الحديث ، ولقد اقتصرنا عليه ونحن نعلم أن الشاعر قد نفح قراء الأدب ولا يزال ينفحهم بشعره الرائع الخصب .

والرأى فى مطران أنه الشاعر الذى مهد لهذه النهضة الشعرية الحديثة فى العالم العربى التى أثمرت الآن وآتت أكلها ، وهو شاعر

دقيق المعنى فى أغلب نظمه ، حديث الموضوعات ، لطيف المدخل سهل التعبير سهولة ربما أنقصت الجمال الشعرى فى بعض المواقف ، وهو إلى ذلك أول من اعتنى بالقصة فى شعره عناية فائقة وأتى بها فى ثوب من الفن قشيب .

obeikandl.com